

الفصل الحادي عشر

الشيعة الاثنا عشرية وتحولاتها الفكرية

من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجريين

حسان عبد الله حسان

دكتوراه في أصول التربية ، أستاذ في جامعة بنها- مصر

hasnnaser@hotmail.com

المقدمة :

الضرورة للأمة في داخل الدين نفسه، تلك المصالح التي يمكن أن تتعرض للتهديد والتدمير مع وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتمثل هذا الطريق إلا في تعيين الخليفة الصالح للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الخليفة الذي يملك العلم الموهوب من الله، ليتمكن بيان الحقائق الدينية بكل أبعادها وخصوصياتها، ويتمتع بملكة العصمة... وكذلك يمكنه القيام بالدور التربوي الذي كان يملكه النبي صلى الله عليه وسلم . . وكذلك يتصدى للحكومة وتدير الأمور في الأمة الإسلامية، وتطبيقها ونشر الحق والعدالة في العالم"،^(١) وهذا الشخص الذي يقوم بكل هذه المسؤوليات والوظائف عند الشيعة هو «الإمام» ولا يمكن فهم القرآن والسنة أو تطبيق الشريعة إلا عن طريق الإمام المنصوب من قبل النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه واسمه، وهو امتداد للنبوّة في الوظائف لا في المنصب، "فإذا كان دور النبوّة قد انتهى، فإن دور الولاية يبدأ بذلك الانتهاء، ودور الولاية هو دور الإمام الذي يعقب النبي.. فلا بد للكتاب من قيم ينط به العلم علماً كاملاً، فنص القرآن وحده لا يكفي، لأنه -فضلاً عن معناه المستور وراء ظاهره- يشتمل على تناقضات ظاهرة، لا ترتفع إلا بالتأويل، وهو تأويل لا ينفع فيه اللجوء إلى الجدل الكلامي القائم على منطق العقل وقياسه، وإنما يحتاج الأمر إلى رجل ملهم ورث عن سلفه إراثاً روحياً يمكنه من الإلمام بالظاهر والباطن معاً في وحدة متصلة، وهذا هو من يوصف بأنه حجة الله، أو قيم الكتاب، أو الإمام."^(٢)

أسهمت عدة مدارس^(٣) فكرية في تشكيل الحياة الفكرية والثقافية الإسلامية خلال ما يزيد على أربعة عشر قرناً، ويكاد يتفق الدارسون والباحثون في التاريخ الإسلامي على أن هناك أربع مدارس رئيسة كان لها الدور الأساسي في الحياة الإسلامية، أولها: المدرسة النصوبية أو مدرسة أهل السنة، وقامت هذه المدرسة على استخدام منهجية النصوص في تفسير الفكرة الإسلامية، وهذه النصوص هي: الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وإجماع السلف. والمدرسة الثانية هي المدرسة العقلية وتمثلها المعتزلة، وقد قامت هذه المدرسة على أصول خمسة هي: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة الكشفية أو الذوقية التي تمثلها الصوفية، والصوفية في الأساس منهج وطريقة زاهدة، مبنية على أساس الشرع وتركبة النفس، والإعراض عن الدنيا من أجل الوصول إلى الحق تبارك وتعالى والسير باتجاه الكمال. والمدرسة الرابعة في الفكر الإسلامي هي المدرسة الإمامية التي تمثلها المدرسة الشيعية، وتقوم هذه المدرسة على مقولة رئيسة هي مقولة «الإمامة»، والطرح الفلسفي لهذه المقولة عند الشيعة يقوم على فكرة «ختم النبوّة والدين» و«صلاحية الإسلام في كل زمان» بمعنى "أن الدين الإسلامي إنما يمكن طرحه كدين كامل وشامل يستجيب لكل الاحتياجات ولجميع البشر حتى نهاية العالم، فيما لو افترض وجود طريق لتوفير المصالح

"أن التشيع حركة سياسية معارضة نشأت بعد حادثة السقيفة"^(١٠) وكذلك نظر بطروشوفسكي إلى الشيعة بوصفها حركة إصلاح اجتماعي لبعض المثالب الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي الأول عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى ذلك بقوله: "... وقد أثار الإجحاف الاجتماعي وعدم المساواة وميل عثمان إلى الإسراف سخط جماعات كثيرة من العرب، فتكون في عهد عثمان رضي الله عنه جماعة أو حزب من المؤيدين لصهر النبي صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته المحبوبة فاطمة - رضي الله عنها - أي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسمي المؤيدون له باسم شيعة علي - أو حزب أو فرقة علي - ومن هنا ظهرت كلمة شيعة وتشيع"^(١١) وقد أيد هذا الاتجاه المستشرق: جوستاف إفون جرو نيباوم،^(١٢) الذي أطلق مصطلح (مذهب الشيعة الثوري) على حركة التشيع. والاتجاه الثاني: مؤرخو السنة، وأبرزهم الشهرستاني (توفي ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) في كتابه (الملل والنحل)، في التاريخ للشيعة وإن لم يحدد تاريخاً زمنياً لنشأتهم، إلا أنه ذكر جملة المبادئ التي يعتقدونها وأوصافهم فقال: "الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على وجه الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين..."^(١٣) ويقسم الشهرستاني فرق الشيعة إلى خمس فرق وهي: الكيسانية، والزيدية، والإمامية، والإسماعيلية، والغلاة، ويرد أصولهم الفكرية والمذهبية إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى المشية.

أما أبو الحسن الأشعري (توفي ٣٣٠هـ / ٩٤٢م) فإنه يتفق مع وصف الشهرستاني للشيعة بأنهم الذين شايعوا علياً وقدموه على سائر الصحابة، ويصنف الشيعة إلى ثلاثة أقسام: "الغلاة وهم خمس عشرة فرقة، والإمامية أربع وعشرون فرقة، والزيدية ست فرق."^(١٤) والاتجاه الثالث: آراء الشيعة، وينقسم إلى قسمين

والشيعة الاثنا عشرية- موضوع هذه الدراسة- قد احتطت لنفسها موقفاً إيديولوجياً ساهم في تكوينه المراجع الدينية وعلماء الشيعة، وبخاصة في القرون الثلاثة الأولى. وسوف نتناول في الصفحات التالية جانباً من المشهد الفكري للشيعة الاثني عشرية، وتحولاتها الفكرية عبر التاريخ الإسلامي، بوصفها إحدى المدارس الفكرية التي أسهمت في تشكيل الحياة الفكرية والثقافية الإسلامية خلال ما يزيد على أربعة عشر قرناً.

أولاً: النشأة التاريخية والتطور الاجتماعي

تعدد آراء الباحثين والمؤرخين في نشأة «الشيعة» و«التشيع»^(١٥) والبداية التاريخية لظهورهم، ويرد هذا التعدد والاختلاف إلى تباين الاتجاهات الفكرية التي ينتمي إليها كثير من المؤرخين، ومن ثم تباين تمايز المصادر التاريخية في الأصول التاريخية للشيعة. وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الحوادث المهمة -التي اتفق عليها أغلب المؤرخين في كونها من العوامل المؤثرة في نشأة الشيعة، التي أثرت بنحو مباشر في التكوين التاريخي للشيعة وهي "حادثة السقيفة"^(١٦) و"مقتل الخليفة عثمان بن عفان"^(١٧) وما ترتب عليه من عدم استقرار الأوضاع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب، ثم ما ترتب على ذلك من أحداث مثل وقعة الجمل"^(١٨) و"صفين والتحكيم"^(١٩) و"استشهاد الحسين"، فمن أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الأحداث هو انقسام الأمة الإسلامية، إلى ثلاث فرق رئيسة هي: الشيعة، والخوارج، وأهل السنة.^(٢٠) كما انقسمت الآراء في نشأة الشيعة وأصلها التاريخي إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة نستعرضها فيما يلي لتوضيح أهم تفسيرات هذه النشأة.

١- اتجاهات النشأة والتطوير:

الأول: الاتجاه الاستشراقي، وقد أكد عدد من المستشرقين الأبعاد السياسية والاجتماعية في تفسير نشأة الشيعة، ومنهم فلهوزن، فرأى الشيعة بمنظور سياسي بوصفها حركة سياسية معارضة، ويقول في ذلك: "لقد تمكن الشيعة أولاً في العراق، ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كله..."^(٢١) وقد ذهب إلى تأييد هذا القول جولد تسهير؛ الذي رأى

«العقل التأويلي» لعدد من النصوص الدينية - القرآن والسنة - من أجل تدعيم موقفها وصيغته بالصيغة الإسلامية أو ما يمكن تسميته بـ «أدلة الموقف السياسي دينياً»، فكان هذا الكم الموجود من عناوين الكتب والموسوعات والرسائل... الخ التي تحمل أسماء «الغدير» وهي أشهر الحوادث التي يتبناها الشيعة لتأييد موقفهم السياسي.

ويؤيد هذا المنحى السياسي - كذلك - هو أن الاختلاف بين الشيعة وغيرهم من المسلمين لم يقع في القرآن أو أركان الإسلام والإيمان - باستثناء القول اللاحق في الإمامة - بل نشأ الخلاف حول منصب الخليفة أو الإمام، ومن ثم فإن كان الشيعة يتبنون منهج أهل البيت فهذا مما لا خلاف عليه بين المسلمين لأنه يأخذ طابعاً ولائياً لأسباب عقدية خالصة: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} (الشورى: ٢٣)، ولكن ذلك لا يكون سبباً لتحديد موقف سياسي خاص يخالف معنى الشورى القرآنية والسنية.

وتشير بعض مصادر الشيعة إلى أن تعداد الشيعة في الفترة النبوية كان لا يتعدى أربعة من الصحابة، ثم أخذ هذا العدد في الزيادة حتى عدتهم بعض المصادر ١٣٣ صحابياً بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.^(٢١) وكان تفرق الشيعة في العالم الإسلامي بسبب الأحداث السياسية سبباً مهماً في تنوع وتعدد أماكهم في العالم الإسلامي، بل إن كثيراً من الأماكن التي انتشر فيها التشيع خارج مكة والكوفة كانت من عوامل الازدهار الفكري والعلمي للشيعة.

ومنذ عام ١٣٧٧ هـ / ٨٠٣ م تبدأ مرحلة جديدة في التطورات السياسية للشيعة في العالم، تتمثل في بدء قيام الدويلات الموالية للشيعة ومبادئ التشيع، فيشير صاحب موسوعة (الشيعة في التاريخ) إلى وجود ثلاث وثلاثين دولة شيعية عبر التاريخ.^(٢٢)

وتعد إيران منذ عهد الدولة الصفوية (٩٠٥ هـ - ١٥٠٠ م) موطناً للشيعة في العالم، فقد أعلن الشاه إسماعيل الصفوي أن المذهب الشيعي الاثني عشري هو المذهب الرسمي في إيران، وقد قام ملوك هذه الأسرة بعدة أنشطة وممارسات بهدف ترويج المذهب الشيعي ونشره.

رئيسين، الأول: اتجاه المؤرخين الذي يرى أن نشأة الشيعة كانت عقب وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن أعلام هذا الاتجاه النوبختي (توفي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م)؛ إذ يقول: "بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم افترقت الأمة ثلاث فرق، فرقة منها سميت «الشيعة» وهم شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام ومنهم افترقت صفوف الشيعة كلها، وفرقة منهم ادعت الإمرة والسلطان وهم «الأنصار» ودعوا إلى عقد الأمر لسعد بن عباد، وفرقة مالت إلى أبي بكر وتأولت فيه،..."^(١٥) ويرر اليعقوبي (توفي ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) هذا القول - في نشأة الشيعة - "بتخلف قوم من المهاجرين والأنصار عن بيعة أبي بكر - رضي الله عنه - "مالوا مع علي بن أبي طالب".^(١٦)

الرأي الثاني: اتجاه الفلاسفة والمفكرين، ويؤكد هذا الاتجاه المعاصر القول بأن التشيع نشأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، بل إنه يتزامن مع بدء الدعوة إلى الإسلام نفسه، ومن دعاة هذا الاتجاه محمد حسين الطباطبائي (توفي ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م)، ويشير إلى ذلك بقوله: "يجب أن نعلم أن بداية نشوء الشيعة، التي سميت لأول مرة بشيعة علي وعرفت بهذا الاسم كانت في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، فظهور الدعوة الإسلامية وتقدمها وانتشارها خلال ثلاث وعشرين سنة، زمن البعثة النبوية، أدت إلى ظهور مثل هذه الطائفة من الصحابة،"^(١٧) ويستدل أصحاب هذا الرأي بعدة نصوص أهمها: حديث يوم الدار،^(١٨) وحديث الغدير،^(١٩) وحديث الثقلين،^(٢٠) وغيرها من النصوص التي يستند إليها أصحاب هذا الرأي في تبرير آرائهم.

والتأمل لهذه الآراء والحوادث المختلفة يلاحظ أن نشأة الشيعة، وتكوينهم التاريخي، كانت ذات أبعاد سياسية واجتماعية ودينية، وأن العامل السياسي كان جوهر هذه النشأة، ويظهر ذلك من الحوادث المختلفة التي ساهمت بنحو مباشر على محددات هذا التكوين مثل: حادثة «السقيفة»، و«الجمل»، و«صفين»، و«التحكيم» و«استشهاد الحسين»،... فإن هذه الحوادث شكلت حالة «الانقسام السياسي» الأول في تاريخ الأمة الإسلامية... وحاولت الشيعة - مثل باقي الفرق الإسلامية - شحذ

تقريباً، وكان لطول هذه الفترة أثر كبير في تراكم كم هائل من الأخبار والمرويات عن الرسول صلى الله عليه وسلم والأئمة بما ساهم في تكريس الاتجاهات التي ترفض الاجتهاد في مقابل النصوص الكثيرة والمتراكمة التي تحمل العلم اليقيني في مقابل الاجتهاد = العلم الظني، ومن ثم رفض الاتجاه العام في الفكر الشيعي أي اجتهاد آنذاك، وخصوصاً أن هناك نصوصاً موروثية تمنع أشكاله المختلفة مثل: رفض العمل بالرأي والقياس ووضعهما في باب البدع: ومن هذه الروايات: "إن دين الله لا يصاب بالمقائيس" (٣١) و"من نظر برأيه هلك" (٣٢) و"إن السنة إذا قيست بحق الدين" (٣٣) وفي سؤال للإمام الصادق من أحد أتباعه عن أشياء ترد علينا ولا توجد في كتاب أو سنة فننظر فيها فقال: لا، إما إنك أصبت لم توجر، وإن أخطأت كذبت على الله عز وجل" (٣٤) ومثل ذلك قوله - أيضاً - "من أفتى الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضاد الله حيث أحلّ وحرم فيما لا يعلم" (٣٥). وبهذا الأساس الضخم من النصوص والروايات ركن العقل الشيعي فترة من الزمن مسلماً بهذا الفهم نحو الاجتهاد والعقل، وتأسست في ظله المدرسة الأخبائية، وبخاصة في ظل الغيبة التي دخل فيها العقل الثقافي الإمامي في أعماق مرحلة فكرية جديدة أملت عليها نظرية الغيبة، وهي مرحلة «التقية والانتظار»، فليس للفقهاء سوى صلاحيات محدودة وظيفياً ومكانياً وعند الأمن والأمان، وغير ذلك فيجب اللجوء إلى «التقية للانتظار» لظهور الإمام المهدي المنتظر، ومن أهم الانعكاسات الفكرية التي نتجت عن هذه المرحلة: تحريم العمل السياسي عند الشيعة، وعدم التفكير في إقامة دولة شيعية، وتحريم إقامة بعض الفروض الدينية كصلاة الجمعة وزكاة الخمس، وصرف الكثير من الجهود الفكرية - في هذه المرحلة - لتأصيل حالة: التقية والانتظار، وغرس الاستكانة والكسل الفكري وعدم تطوير الحياة الاجتماعية عند الشيعة، بينما ظلت نظرية «النيابة العامة» تعاني من الفقر الفكري، على الرغم من قيام الدولة الصفوية الشيعية في إيران (٩٠٥هـ)، والتي تجاهلت فكرة «الانتظار» واشترط العصمة في الإمام، ونقلت المجتمع الشيعي من حالة الغيبة والانتظار إلى الارتقاء لمنصة الحكم والسلطنة.

وقد اختطت الشيعة الاثنا عشرية خطاً لها متميزاً عن باقي فرق الشيعة، وذلك في خطين أساسيين هما: التميز عن الفرق الغالية، التي يستبعدون أفكارها من المذهب الشيعي عموماً والإمامي خصوصاً وأهمها: الخطابية، (٢٣) والغرابية، (٢٤) والعلياوية، (٢٥) والخمسة، (٢٦) والبزيعية، (٢٧) والقرامطة، (٢٨) وغيرها من الغلاة التي ذكرها الشيعة في كتبهم. (٢٩) والخط الثاني الذي اختطته الشيعة الاثنا عشرية، وهو القول بوجود اثني عشر إماماً بعد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، فبعد الإمام السادس (جعفر الصادق) ظهرت بوادر للتغيير في نظرية الإمامة التي لم تستقر بعد، وخاصة فيما يتعلق بقاعدة "عدم اجتماع الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين، وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر"، (٣٠) أو ما يعرف بالإمامة العمودية، فقد توفي الابن الأكبر للإمام جعفر في حياته وهو إسماعيل، فانقسمت الشيعة على هذا الأمر، "ففرقة قالت إن الإمام الصادق لم يموت وهم (الناوسية)، وزعمت أخرى أن ابنه إسماعيل لم يموت في حياة أبيه وأنه لازال حياً وإليه تذهب الإمامة وهم (الإسماعيلية) وثالثة ذهب في محمد بن إسماعيل وتسمي (المباركية)، وقالت رابعة إن الإمامة في محمد بن جعفر الصادق - الابن الأكبر بعد إسماعيل وهي (الشميطية) وفرقة خامسة قالت بإمامة عبد الله بن جعفر - أخي إسماعيل - ويسمون (القطبية)، أما الفرقة السادسة فقالت بإمامة موسى ابن جعفر (الكاظم)"، وانقسمت بعد وفاته إلى فرقتين، الأولى (الواقفة) التي وقفت على الإمام الكاظم لم يأتوا بأحد بعده، والثانية هي (الاثنا عشرية) أو (القطعية) التي قطعت بموته، وساقوا الإمامة من بعده في ابنه علي الرضا (١٤٨هـ - ٢٠٣هـ) ومن بعده ابنه محمد الجواد (١٩٥هـ - ٢٢٠هـ) ثم علي بن محمد الهادي (٢١٢-٢٥٤هـ) ثم الحسن بن علي العسكري (٢٣٢هـ - ٢٦٠هـ) ثم محمد بن الحسن المهدي المنتظر (٢٥٥هـ)، والذي بدأت غيبته الكبرى سنة ٣٢٩هـ. ٢- الفكر الإمامي من الغيبة والانتظار إلى النيابة والاجتهاد:

نلاحظ من خلال هذه الأدوار الرئيسة في التاريخ الشيعي أن عصر النص امتد منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حتى الغيبة الكبرى أي حوالي ثلاثة قرون ونصف

للسلطان، أو الذين رفضوا النشاط السياسي على قاعدة انتظار ظهور الإمام المهدي بحجة ارتفاع التكليف عنهم ما عدا الانتظار وبخاصة أن الكركي قد أعطى الشاه طهمااسب إذنًا للحكم مستنداً إلى صفته كنائب للإمام، وهو ما أثار عدة تساؤلات حول دور الفقيه، والسلطان ومن يكون في خدمة من، وحقيقة إضفاء الشرعية من الفقيه للسلطان.

كما ظهرت أفكار جديدة للشهيد الثاني المعروف بابن الحجة^(٣٧) (توفي ١١٠١هـ - ١٦٠٣م) مثل: "القول بوجوب صلاة الجمعة دون الحاجة إلى استئذان الإمام في عصر الغيبة، إلا أنه لم يبح للفقيه استلام الخمس وخاصة سهم الإمام، كما أنه لم يتحدث عن الجهاد ولا إقامة الدولة في عصر الغيبة ولا الاعتراف بالصفوية الشيعية".^(٣٨) ومن أبرز ما قدمه الشهيد الثاني في ميدان التطور الفكري إرساؤه لاتجاه التحقيق والمراجعة للأخبار الواردة عن الأئمة، التي كان يعتقد عند المدرسة الإخبارية بصحتها على الإطلاق دون نقد أو تمحيص، وطرح هذه القضية في مؤلفه "منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان" وذكر أن دوافعه لهذا التأليف هو تنقية الأحاديث والمرويات الشيعية وتصنيفها لبيان الصحيح منها والضعيف، وذلك بسبب انتشار التبديل والتحريف فيها، وضعف الاهتمام بها عند الراوين من الخلف الذين "توسعوا في طرق الروايات، وأوردوا في كتبهم ما اقتضى رأيهم إيرادها من غير التفات إلى التفرقة بين صحيح الطريق وضعيفه، ولا تعرض للتمييز بين سليم الإسناد وسقيم اعتماداً منهم في الغالب على القرائن المقتضية لقبول ما دخل الضعف طريقه..."^(٣٩)

ومن النتائج المهمة لانتجاء ترييع الأحاديث في مجال الحجية؛ أي تقسيمها إلى الصحيح والحسن والموثق والضعيف... إلى الاعتماد على مصدرين مهمين في قبول الأحاديث المروية وهما: العقل والقرآن الكريم. وانسحب ذلك إلى مجال الدلالة، فبدأت عملية المناقشة في دلالات النصوص الروائية، والتأمل العقلي في كيفية الاستدلال بها، فتولدت بالتدريج ظاهرة جديدة تتلخص في «عقلنة الفقه». وفي القرن العاشر يدخل الاجتهاد عند الإمامية مرحلة جديدة على يد المحقق الأردبيلي (توفي ٩٩٣هـ - ١٥٨٥)،

وقد أثرت الدولة الصفوية على تطور الفكر الشيعي، خاصة في الميدان الفقهي؛ إذ حاول الشاه إسماعيل الصفوي تثبيت دعائم دولته من خلال إضفاء الشرعية الفقهية والدينية عليها خصوصاً وأنه أعلن المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً للدولة الناشئة، وهو بذلك يصبغ الدولة بالصبغة الدينية المذهبية، وهو ما يبرز الحاجة إلى دور فقهي جديد لم يكن معتاداً من قبل -أي في الدول الشيعية السابقة-، ومن أبرز الفقهاء الذين اعتمد الشاه الصفوي للقيام بالتنظيم لدولته الجديدة هو المحقق الكركي (توفي ٩٤٠هـ) المعروف بالمحقق الثاني؛ إذ ذهب إلى القول بولاية الفقيه العادل الجامع للشرائط والذي ينوب عن الإمام المنتظر، وذكر في إحدى رسائله «أن الفقيه العدل الإمامي الجامع لشرائط الفتوى، المعبر عنه بالمجتهد في الأحكام الشرعية نائب من قبل أئمة الهدى صلوات الله وسلامه عليهم في حال الغيبة في جميع ما للنيابة فيه مدخل - وربما استثنى الأصحاب القتل والحدود مطلقاً - فيجب التحاكم إليه، والانقياد إلى حكمه، وله أن يبيع مال الممتنع من أداء الحق إن احتيج إليه، ويولي أموال الغياب والأطفال والسفهاء والمفلسين، ويتصرف على المحجور عليهم، إلى آخر ما يثبت للحاكم المنصوب من قبل الإمام عليه السلام. والمقصود من هذا الحديث هنا: أن الفقيه الموصوف بالأوصاف المعينة، منصوب من قبل أئمتنا عليهم السلام، نائب عنهم في جميع ما للنيابة فيه مدخل بمقتضى قوله: «إني قد جعلته عليكم حاكماً»، وهذه استنابة على وجه كلي. ولا يقدر كون ذلك في زمن الصادق عليه السلام، لأن حكمهم وأمرهم عليهم السلام واحد كما دلت عليه أخبار أخرى، ولا كون الخطاب لأهل ذلك العصر، لأن حكم النبي صلى الله عليه وآله، والإمام عليه السلام على الواحد حكم على الجماعة بغير تفاوت»^(٣٦)

والملاحظ أن تجربة المحقق الكركي في إيران، هي أول تطبيق عملي لدور الفقيه مع السلطة الحاكمة، بعد التنظيم الذي بدأه الشهيد الأول العاملي حول فكرة ولاية الفقيه، ما يدل على خطوة جريئة ومهمة في عمل الفقيه مع السلطة الحاكمة. ولم يسلم الكركي من منتقديه، الذين اعتبروه معيناً

وتوجهوا إلى تدوين الموسوعات الحديثة وجمع كل الأخبار دون العناية بتصنيفها من حيث درجات صحتها وقوتها وضعفها، وجردوا العقل من كل صلاحياته، وأهموا الظن والاستنباط بالبدعة في الدين.

- تقديم النص «الروائي» على النص «القرآني» في المرجعية المعرفية «الدينية»، «ويعمل بالأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أهل بيته، ويرى أن "ما في كتب الأخبار الأربعة: الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والاستبصار، وتهذيب الأحكام، قطعي السند أو موثوق بصدوره، فلا حاجة إلى البحث عن سندها"»^(٤٢)

ويعد محمد أمين الأسترابادي (١٠٣٦هـ - ١٦٢٧م) مؤسس المذهب الأخباري الحديث، "الذي أطاح بالعقل أولاً، ثم أحدث ثغرة في نظرية الإجماع ثم تناول القرآن فرفض مرجعيته دون السُّنة وأنه لا يمكن فهمه من دونها"»^(٤٣) وذهب الأسترابادي أنه لا سبيل إلى المعرفة إلا عن طريق روايات الأئمة، وأنه لا يجوز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر الكتاب الكريم، ولا ظواهر السنن النبوية ما لم يفسرها الأئمة، ومن هنا فيجب تقديم رواياتهم على القرآن. وبعد الأسترابادي حاول الحر العاملي (١١٠٤هـ - ٦٩٣م) تقديم موقع القرآن الكريم في المعرفة الدينية، فيشير إلى ثماني فوائد للكتاب تبقى له قيمة واعتباراً في ميادين معينة، وهذه الفوائد هي:^(٤٤)

- إن الكتاب معجزة النبوة ودليل صحة الإسلام.
- إن إمامة العترة عليهم السلام وحجية أقوالهم تُعلم من الكتاب.
- إنه مرجع قوي عند تعارض أخبار العترة.
- إنه يمكن الاحتجاج به على العامة؛ أي أهل السنة، لأنهم يعتقدون بحجية تلك الظواهر.
- إنه مؤيد عظيم لأحاديث العترة.
- إنه مشتمل على مطالب مهمة متواترة فيه صريحة مؤيدة للأدلة القطعية، كآيات التوحيد والعدل.
- إن فيه من الحكم والآداب النافعة المتواترة الضرورية ما لا يحصى.

حيث يظهر الاتجاه العقلي بصورة واضحة في مجال الفقه الاجتهادي، ويتم تأكيد عملية تريب مصادرات الأحكام في المدرسة الأصولية لتصحيح: الكتاب والسنة والإجماع والعقل. وقد أسفرت هذه المرحلة عن "عملية تععيد القواعد وتنقيحها والاعتماد الكبير على العقل والتوجه إلى القرآن الكريم الذي تضمن أسس التشريع الإسلامي بعموماته ومطلقاته، وهو المصدر الذي تميز بقطعية صدوره وعدم إمكان التشكيك في سنده، خلافاً لأخبار الآحاد الظنية الصدور، كما يلاحظ ذلك - أيضاً - في اهتمام المحقق الأردبيلي بآيات الأحكام في مؤلفاته الفقهية بعامة (وزبدة البيان) بخاصة."^(٤٥) ولقد تميزت مدرسة المحقق الأردبيلي عن المدارس السابقة والمعاصرة لها بميزتين:

الأولى: التحرر من حصار التبعية للمشهور من الفقهاء والسابقين منهم.

الثانية: الاعتماد على مبدأ التيسير والمرونة في أحكام الشريعة. ومن أهم ملامح هذه المرحلة في حركة الاجتهاد الإمامي:^(٤٦)

- الاهتمام بعلم أصول الفقه وتقسيم مباحثه بدقة عقلية متناهية.
- تضيق دائرة حجية أخبار الآحاد.
- التشكيك في قيمة كثير من إجماعات القدماء وآرائهم.
- الاعتماد الكبير على العقل مصدراً من مصادر التشريع.
- إعداد الأرضية المناسبة للاتجاه نحو حجية مطلق الظن.
- الاتجاه إلى عموميات ومطلقات النص القرآني على نحو جاد.

وفي مقابل هذا الاتجاه ظهر اتجاه آخر يقوم على رفض العقل والاجتهاد، ويهتم بجمع الأخبار وتدوين الموسوعات الحديثة، ويقدم السنة على الكتاب، ويلغي العقل بوصفه مصدراً للتشريع، وهو ما عرف بالاتجاه الإخباري، الذي يقوم على عدة مقولات معرفية أهمها:

- الزعم بصحة كل ما في الكتب الحديثة الأربعة: الكافي، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، وتهذيب الأحكام.
- بل قدموها على القرآن الكريم وأنكروا حجية الإجماع، والقرآن الكريم، وتوسعوا في مجال حجية الأخبار

وضعه ضمن مصادر الأحكام التشريعية، وكذلك مناقشة الأخباريين ورد اتهاماتهم.

وقد أكدت هذه المدرسة أن الأئمة مارسوا الاجتهاد وأمروا به، ويؤرخون لذلك بعهدي الإمامين الباقر والصادق، ويستدل أصحاب هذا الاتجاه بحديث روي عن الإمام الصادق والرضا نصه: "علينا إلقاء الأصول وعليكم بالتفريع"^(٤٨)، وقول الإمام الحسن العسكري: "فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه"^(٤٩)، "والتقليد ليس مجرد قبول الرواية عن المعصوم - ويكون المقلد مجرد ناقل للرواية - وإنما هو عمل العامي استناداً إلى فتوى الفقيه التي قد تكون مضمون رواية خاصة بالمسألة، وقد تكون حكماً مستنبطاً بأعمال الاجتهاد في الكتاب والسنة بما هو فقيه، وقد ورد في الرواية لفظ: الفقهاء"^(٥٠)، ثانياً: الحوزة العلمية والحركة العلمية

الحوزة هي كيان بشري يؤهل للاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية، ويتحمل مسؤولية تبليغ الأمة وقيادتها، وبصفة عامة فيمكن القول إن الحوزة هي الإطار الذي يجمع مدارس علوم الدين عند الشيعة. وتتكون من ثلاث دعائم هي: المجتهد والفقيه المرجع، والأساتذة العلماء، والطلاب. كان الصراع الفكري بين المدرستين الأصولية والأخبارية، وحالة الجدل الفكري في أدلة الأحكام ومصادر الفكر الشيعي، بالإضافة إلى الأوضاع التاريخية والمجتمعية التي عاشها الشيعة، عاملاً رئيساً من عوامل نشأة "الحوزة العلمية"، فالرغبة في المحافظة على الهوية العقائدية والثقافية، قد جعلت الشيعة يقدمون على تأسيس مثل هذا النوع من المعاهد التعليمية والعلمية، التي بلورت على نحو كبير الفكر الشيعي ونسقه العقدي والثقافي، وذلك من خلال المراجع الذين أسسوا هذه الحوزات. وقامت هذه الحوزات بتوريث الفكر الشيعي للأجيال القادمة وحفظه من الضياع والإهمال، وبخاصة في بعض الفترات التاريخية. وقد كانت أولى هذه الحوزات في التكوين حوزة النجف الأشرف في القرن الرابع الهجري، ثم انتشرت بعد ذلك في العالم الشيعي. ومن أشهر الكتب التي ألفت في تلك الفترة وصارت

- إنه دال على وجوب الرجوع إلى العترة في تفسيره وتأويله. وقد ساهمت المدرسة الأخبارية في الوقوف ضد التطورات الفكرية والاجتماعية في المجتمع الشيعي، "فالأخباريون بمنعهم لتدخل العقل وتجويز التقليد الجماعي أسلوباً وحيداً لتعلم أحكام الشرع يقيدون التطورات الفكرية؛ إذ لو كانت هذه التطورات حرة لاستطاعت أن تكون أحكاماً ومبادئ جديدة في البيئة السياسية التقليدية على نحو منسق"^(٥١).

وقد انحسر المد الأخباري في المجتمع الشيعي بفضل جهود الأصوليين منذ ظهور الوحيد البهبهاني (توفي ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١ م) وكاشف الغطاء (توفي ١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ هـ) وأحمد النراقي (توفي ١٢٤٥ هـ - ١٨٣٠ م).

وفي مقابل هذا الاتجاه الأخباري الذي ساهم في تكريس عقيدة "الانتظار" بلا عمل، ولم يتكلف المشقة الفكرية لإحداث التطورات الاجتماعية، ظهرت المدرسة الأصولية أو مدرسة الاجتهاد التي اعتمدت "منهج الاستدلال العقلي لاستنباط القواعد الحقوقية، حتى إن بعضهم قدم القواعد الاستنباطية على الأحاديث غير القطعية أو على خبر الواحد"^(٥٢)، وكان أول من قال بفتح باب الاجتهاد هو "الحسن بن عقيل النعماني - المعاصر للكليني- في أواسط القرن الرابع الهجري، وهو أول من استعمل النظر في البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى، وكان يرى القول بالقياس ويقول باجتهاد الرأي، وكان يشاركه في تلك المدرسة الاجتهادية الرائدة محمد بن أحمد الجنيد الإسكافي الذي عمل صريحاً بالقياس الحنفي واعتمد على الاستنتاجات الظنية"^(٥٣).

ثم ظهرت المدرسة الاجتهادية - كذلك - عند السيد المرتضى في كتابه (الذريعة إلى أصول الشريعة) في القرن الخامس الهجري ثم محمد بن إدريس الحلي (توفي ٦٩٨ هـ - ١٢٩٩ م) في كتابه (السرائر)، (المفتي والمستفتي)، وعند الشهيد الثاني (توفي ٩٦٦ هـ - ١٥٥٩ م) في (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) ثم ظهر في القرن الثالث عشر السيد أبو القاسم الخوئي في كتابه (الاجتهاد والتقليد) وقد حاول كل هؤلاء الرواد تبرير شرعية الاجتهاد

كربلاء وقفاً على المدرسة الإخبارية حتى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة، وانتشرت كتبهم بين الطلاب والمحققين، وبخاصة كتاب (الفوائد المدنية) لمحمد الأمين الأسترابادي، وكتاب (الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة) للمحقق يوسف البحراني (توفي ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م). هذه الكتابات التي كانت تشرح وتعلل وجهة نظر الإخباريين، وتعلن مبادئهم، وبانتقال الوحيد البهبهاني (توفي ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م) إلى كربلاء استطاع تكوين قواعد للمدرسة الأصولية، التي انتقلت إليها الريادة في نهاية هذه القرن الثاني عشر، واستطاع تكوين جيل من تلامذته في الحوزة لمواجهة ما تبقى من الحركة الإخبارية وممارسة التحقيق والبحث الأصولي في الحوزة، ومن أبرز تلامذته: المحقق الميرزا القمي (١٢٣٢هـ / ١٨١٧م) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م) والسيد مهدي بحر العلوم (١٢١٢هـ / ١٧٩٨م) والميرزا مهدي الشهرستاني (١٢١٦هـ / ١٨٠١م) - والسيد علي الكربلائي (١٢٣١هـ / ١٨١٦م).

أما فيما يتعلق بحوزة قم، فقد عملت الدولة الصفوية التي أعلنت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولتها في إيران (٩٠٥هـ - ١١٤٨هـ) على محاولة نقل المركزية العلمية الشيعية إلى إيران - لأسباب وعوامل يرى أغلب المفكرين الشيعة أنها سياسية-، وقد تمثل ذلك في رعاية رجال الدين الشيعة، والمدارس الدينية والمزارات الشيعية في إيران، وتمثل - كذلك- في محاولة جذب الفقهاء والمراجع الشيعة إليها، وقد كان لفقهاء جبل عامل دور كبير في تثبيت أركان المذهب الشيعي في ظل الدولة الصفوية، وبخاصة الشيخ حسين عبد الصمد الحارثي الجبعي وابنه بهاء الدين العاملي المصنف المشهور.

وكان أول الذين قاموا بإنشاء الحوزة العلمية في "قم" هم المحدثون ورواة قبيلة الأشعري، فقد عمل العالم عبد الله بن سعد الأشعري على نشر التشيع في هذه المدينة، وعمل أبناؤه كذلك على نشر علوم القرآن الكريم وأحكام الإسلام. ولم يكن انتشار التشيع في قم مرهوناً فقط بخدمات هذا العالم وأبنائه، ولكنها كانت الخطوة الأولى للحركة العلمية في قم.

مناهجاً ومقررات في الحوزة: (كتاب قطر الندى، وبل الصدى) لمؤلفه عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام (توفي ٧٦١هـ)، كتاب (ألفية ابن مالك)، لناظمه محمد ابن عبد الله بن مالك الطائي (توفي ٦٧٢هـ)، وفي البلاغة (المختصر) لمؤلفه مسعود بن عمر التفتازاني (توفي ٧٩١هـ)، و(جواهر البلاغة) لمؤلفه الهاشمي من رجال القرن الرابع عشر الهجري، وفي المنطق كتاب (الحاشية في المنطق) لمؤلفه الملا عبد الله بن شهاب الدين حسين يزدي (توفي ٩٨١هـ)، وكتاب (المنطق) للشيخ محمد رضا المظفر. أما في الفقه، فكان هناك كتاب (مختصر النافع) للمحقق الحلي (توفي ٦٧٦هـ)، وكتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) للمؤلف السابق، و(الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية)، لمؤلفه الشهيد الثاني (توفي ٩٦٥هـ)، والمكاسب (للشيخ مرتضي الأنصاري)، (توفي ١٢٨١هـ).^(٥١)

أما في علم أصول الفقه، فمن أشهر الكتب: كتاب (معالم الأصول) لمؤلفه ابن الشهيد الثاني (توفي ١٠١١هـ)، وكتاب (قوانين الأصول) للقمي (توفي ١٢٣١هـ)، و(كفاية الأصول)، للمحقق كاظم الخراساني، (توفي ١٣٢٩هـ)، وكتاب (الرسائل) للشيخ مرتضى الأنصاري، و(أصول الفقه) للشيخ محمد رضا المظفر (توفي ١٣٨٣هـ).^(٥٢)

وعندما تقارن الحركة العلمية الإسلامية في القرون السابعة والثامنة والتاسعة في الحوزة العلمية في النجف الأشرف مع النشاط العلمي الواسع وحجم المؤلفات والكتب القيمة التي سطرت في مدينة الحلة، نستنتج أن الدراسات الدينية قد خفت في النجف، في حين أن الحركة العلمية الإسلامية قد انبعثت في الحلة وتطورت، وأبدعت الثمار الفكرية والآراء الفقهية والكتب العميقة الاجتهادية بسبب وجود المحققين وكبار العلماء فيها، ولكن بعد فترة وجيزة سرعان ما تراجعت الحوزة العلمية في الحلة وازدهرت الحركة الفقهية في النجف الأشرف، وذلك في العقود الأخيرة من القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر عندما وفد عليها الأردبيلي.^(٥٣)

وقد تداولت الحوزة العلمية الريادة فيها بين المدرستين الأخبارية والأصولية، فكانت الحركة العلمية في

الإسلامي للتقريب بين الشيعة والسنة، وذلك في مؤتمر النجف (١١٥٦هـ) الذي اجتمع فيه لأول مرة علماء من المسلمين الشيعة، والسنة، وعلى الرغم من أنه "من المحتمل أن تكون هناك بواحد سياسية كامنة وراء هذا العمل وهي طموحات نادر شاه، الذي كان يرمي إلى حكم إمبراطورية واسعة أبعد من حدود إيران... وفي الوقت نفسه القضاء على الآثار الممتدة للتبعية شبه المذهبية لكل الإيرانيين للصوفية، الذين كانوا يعتبرونهم حكام إيران الشرعيين، والمصلحة في الوصول إلى هدنة مؤقتة مع العثمانيين، ولكن بقدر ما كانت طموحاته الأساسية عظيمة، كان مشروعه للمصالحة الشيعية- السنية".^(٥٦)

ومن الناحية الداخلية جاهد نادر شاه في القضاء على الأعمال التي كانت تثير اعتراض أهل السنة أكثر من غيرهم؛ أي السب الجماعي للخلفاء ورفضهم لشرعيتهم في الخلافة، فقد أبطل هذه الأعمال رسمياً وأدائها بصفتها (لغو العامة) بسبب الفرقة والخضومة بين المسلمين، ثم جاهد في تحويل التشيع إلى مدرسة فقهية صرفة، وتنقيته من "علم الإمام الباطني، وكان اقتراحه ترك الهوية المستقلة للمذهب الشيعي... وأن يعامل الإمام جعفر الصادق؛ مؤسس الفقه الشيعي- على قدم المساواة مع مؤسسي المذاهب الفقهية الأربعة، بحيث لا يبقى أي عائق عقائدي في طريق التحام التشيع بالإسلام السني".^(٥٧)

ومن الناحية الخارجية طلب نادر من الحكومة العثمانية، بصفتها ممثلة الإسلام السني أن تعترف بالمذهب الجعفري في صورته الجديدة رسمياً، ثم قام بعدة خطوات عملية في تأييد هذا التغيير، فأقام ركناً خامساً في الكعبة المشرفة للشيعة يكون دليلاً على قبول الشيعة كمذهب خامس للمذاهب الأربعة، وولى أميراً للحج يذهب مع الحجاج الإيرانيين إلى مكة عن طريق دمشق، وأطلق سراح أسرى الحرب في إيران كما قام بتبادل السفراء.^(٥٨)

ولم يكتمل هذا المشروع لما كان يهدف إليه نادر شاه، فقد كان يريد أن يقوم بثورة مذهبية فقهية ثقافية كبيرة داخل المذهب الشيعي، فظهر له الكثير من المعارضين لهذه الأفكار التجديدية ذات المنطلق السياسي، وانتهى المشروع

وقد حدثت نقطتنا تحول في تاريخ حوزة قم جعلها مركزاً للعلم الشيعي خلال القرن العشرين وحتى بدايات القرن الحادي والعشرين هـ: "يجيء آية الله العظمي عبد الكريم الحائري اليزدي (١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م) لهذه الحوزة والإقامة فيها، وقد أعطى ذلك دفعة وحياة جديدة لهذه الحوزة، وقد عقد الحائري اجتماعاً حضره العلماء والتجار في طهران، وحضره من الفقهاء العظماء آية الله بافقي وآية الله فيضي، وذلك بغرض وضع أسس للحوزة العلمية بقم، وكان ذلك في عام ١٩١٩م، فكان له أثر كبير في نمو وازدهار هذه الحوزة"،^(٥٩) والعامل الآخر يمثل في "حادثة تفسير خمسين عالماً إلى إيران (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤هـ) يتقدمهم ثلاثة مراجع كبار لهم سجل حافل بالجهاد والفقه"،^(٦٠) ثم كان لنجاح الثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩م) دور كبير في تحقيق زعامة حوزة قم للحوزات الموجودة في العالم الشيعي المعاصر.

ثالثاً: التقريب بين الشيعة والسنة

تختلف طبيعة الجدل الشيعي- السني من عصر إلى آخر حسب مجموعة من الظروف والعوامل ذات الطابع السياسي تارة والفقهية تارة أخرى، واتخذت أشكالاً متنوعة، فبعد مرحلة "الأدلة" للمذهبيين السني والشيعي، التي قام بها منظرو ومتكلمو الفرقين حتى القرن الرابع الهجري، اتخذت هذه العلاقة شكلاً آخر يمثل في "المنازعات الجدلية" التي كانت تدور غالباً في الفروع لا الأصول، وقد تجلت هذه المرحلة من قبل علماء السنة في عدة كتابات، أبرزها (منهاج السنة النبوية) لابن تيمية، والرد عليه من علماء الشيعة في كتاب (منهاج الكرامة في معرفة الإمامة) للحلي.

وفي القرن العاشر الهجري تداخل السياسي مع المذهبي، فبعد إعلان الدولة الصفوية إيران وطناً للشيعة، دخلت في صراع طويل مع الدولة الحدودية السنية- العثمانية- وخلال هذا الصراع تنامي الصراع المذهبي ولم تبرز أية محاولات للمصالحة، فضلاً عن التقريب بين الشيعة والسنة، حتى انهيار الدولة الصفوية.

وبمجيء القرن الثاني عشر الهجري وظهور الملك الإيراني "نادر شاه" (١٠٩٩ - ١١٦٠هـ) أحد ملوك الأسرة الأفشارية، تظهر على يديه، أول محاولة في التاريخ

بمقتل نادر شاه بعد أربع سنوات فقط (١١٦٠هـ) من المناداة بالتقريب الشيعي - السني. وبالرغم من ذلك فإن هذه المحاولة الباكورة تظل هي الأولى من نوعها، وبخاصة فيما يتصل بتحديد نقطة الانطلاق الأساسية وهي السلطة السياسية؛ إذ إن محاولات التقريب التالية خلال القرون السابقة كان لها منطلق غخبوي فكري عارضته السلطة السياسية في كثير من المحاولات، لذلك يظل الامتياز لهذه المحاولة في هذا المنطلق، وكذلك في الغاية والهدف.

الخلاصة:

مرت الشيعة الاثنا عشرية بتطورات مفصلية مهمة عبر تاريخها الطويل، بدءاً من نشأتها كفرقة سياسية، مروراً بنجاحها في إنشاء كيانات سياسية خاصة بها، وتركزت تجربتها السياسية حول الإمامة التي يعدها الشيعة الاثنا عشرية ركناً من أركان الدين.

وعلى الصعيد الفكري تطور الفكر الشيعي الإمامي من رفض الاجتهاد مقابل النص، إلى الوصول إلى صيغ اجتهادية جديدة تتمثل في ولاية الفقيه، بوصفه نائباً عن الإمام في مرحلة الغيبة، ووافق هذا تطور في النظرة إلى الأخبار الواردة عن الأئمة، وتنقيتها لبيان الصحيح من الضعيف.

وتطور الاجتهاد عند الشيعة الإمامية باتجاه النظر العقلي في مجال الفقه، وبرزت الحوزات العلمية التي أسهمت في تطور علم أصول الفقه، واتجه الفكر الشيعي لمحاولة التقريب بين الشيعة والسنة في مؤتمر النجف الذي انعقد سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م. لتشكل بادرة هي الأولى من نوعها في الدوائر الشيعية.

المراجع

- (١) يستخدم لفظة "مدرسة" هنا بمعناها الواسع لا ليدل على وجود تناسق أو وحدة فكرية بين أتباع المدرسة الواحدة، بل إن المدرسة الواحدة قد تجمع داخلها عدة اتجاهات فكرية مختلفة لا متفقة في كثير من الآراء مثل المدرسة العقلية التي تمثلها المعتزلة، والتي تنقسم إلى عدة فرق مثل الواصلية، والهديلية، والنظامية ١٠٠ الخ. وقد انفردت كل واحدة منهم بأقوال وآراء تميزت بها عن الأخرى.
- (٢) يزدي، محمد تقي مصباح. دروس في العقيدة الإسلامية، ترجمة: السيد هاشم محمد، طهران: مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠٠٠م، ص ٣٣٠.
- (٣) محمود، زكي نجيب. تجديد الفكر العربي، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م، ص ٢١٣-٢١٤.
- (٤) حادثة السقيفة: تذكر المصادر الشيعية أن تأخر علي بن أبي طالب وجماعة من الصحابة عن مبايعة أبي بكر ورفض بعضهم الآخر ممن كانوا يرون أن علياً أحق بالخلافة، يؤرخ لظهور الشيعة. انظر علي سبيل المثال:
 - النوبختي، القمي. فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحنفي، القاهرة: دار الرشد، ١٩٩٢م، ص ١٤.
 - اليعقوبي، محمد بن أحمد. تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، ١٩٨٠م، ج ٢، ص ١٢٤.
- (٥) اشدت الاختلاف بين المسلمين في عهد عثمان بن عفان، ويروي الأشعري ذلك بقوله: "... وكان الاختلاف بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، في الإمامة، ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر، وأيام عمر، إلى أن ولي عثمان بن عفان وأنكر قوم عليه في آخر أيامه فعلاً، كانوا فيما نعموا عليه من ذلك مخطئين وعن سنن المحجة خارجين، فصار ما أنكره عليه اختلافاً إلى اليوم، ثم قُتل رضوان الله عليه، وكانوا في قتله مختلفين، فأما أهل السنة والاستقامة فإتهم قالوا: كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً، وقال قاتلون خلاف ذلك، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم". انظر:
 - الأشعري، علي بن إسماعيل. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٤٧-٤٨.
- (٦) وقعة الجمل (٣٦هـ) حيث قدمت أم المؤمنين عائشة وجمع من الصحابة هم: طلحة والزبير -رضي الله عنهما- ورأوا ضرورة القصاص من قتلة عثمان وأن علياً مطالب بذلك، وقد حاول علي أن يردهم إلى الصواب ودعا علي قتلة عثمان ثم اصطبلحوا، إلا أن الزبير قال لجماعة معه: ارموهم ولا تبلغوا، وكأنه أراد أن ينشب القتال، وقد حدث بالفعل، وكان طلحة يقول: أيها الناس أنصتوا، والفتنة تغلي، فقال، أف فراش النار، وذئاب طمع، وقال: اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتى ترضى، إنا داهنا في أمر عثمان، كنا أمس يدأ علي من سوانا وأصبحنا اليوم جبلين من حديد.....، وانتهت هذه الوقعة بمقتل الآلاف من الصحابة بسبب مدبري الفتنة. انظر:
 - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، القاهرة: دار الغد العربي، ١٩٩٦م، ج ٢، ص ١٩٢-١٩٣.
- (٧) وقعة صفين والتحكيم (٣٧هـ)، اجتمع المسلمون على أمر علي إلا أن معاوية لم يبايعه، وبعث معاوية أبا مسلم الخولاني إلى علي بأشياء يطلبها منه، منها أن يدفع إليه قتلة عثمان، فأبى علي، وجرت بينهما رسائل، ثم سار كل منهما يريد الآخر، فالتقيا بصفين، وشبت بينهما الحرب فاقتتلا، وكاد يهزم معسكر معاوية، لولا أن لجأ عمرو بن العاص إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح والدعوة إلى الاحتكام لكتاب الله عز وجل، فاحتكما الفريقان واختار كل منهما مفاوضاً، خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري الذي رضي بعزل علي ومعاوية معاً، انظر:
 - الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١١-٢١٣. هنا بدأ الانقسام الفعلي في التاريخ الإسلامي؛ حيث ظهر الخوارج الذين رفضوا هذا التحكيم بل وكفروا بالإمام علياً وقالوا: لا حكم إلا لله بواسطة الحرب ينصر الحق ويهزم الباطل، والفرقة الأخرى هي «الشيعة» الذين ناصرُوا ووافقوا علياً ولم يخرجوا عنه أو عليه. انظر:
 - الطبري، ابن جرير. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م، ج ٥، ص ١٤٣-١٤٥.
- (٨) استشهاد الحسين (٦١هـ)، عندما مات معاوية بن أبي سفيان حاول يزيد ابنه أن يأخذ البيعة من الحسين وأتباعه، إلا أن الحسين أبى مبايعته، ودعا أهل الكوفة الحسين لمبايعته، إلا أن يزيد أرسل له جيشاً بقيادة ابن زياد والتقوا عند كربلاء، واستشهد الحسين، انظر حادثة الاستشهاد بالتفصيل في:
 - الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مرجع سابق، ص ٣٩٩-٤٠٨. وقد مثلت هذه الحادثة حلقة مهمة في

- (٢٠) حديث الثقلين: قال صلى الله عليه وسلم "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض". انظر:
- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٦.
- (٢١) الوائلي، أحمد. هوية التشيع، مركز آل البيت العالمي للمعلومات، مكتبة العقائد والكلام، طبعة إلكترونية، ص ٣٥، تاريخ الزيارة www.al-shia.com. ٢٥/٥/٢٠٠٢م.
- (٢٢) الموسوي، عبد الرسول. الشيعة في التاريخ، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣٢٢-٣٢٤.
- (٢٣) الخطابية: من أقوالهم: إنه لا بد من رسولين في كل عصر، ولا تخلو الأرض منهما: واحد ناطق وآخر صامت، فكان محمد صلى الله عليه وسلم ناطقاً وعلي رضي الله عنه صامتاً، انظر:
- النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق، ص ٥٢.
- (٢٤) الغرابية: يذهب أصحاب هذه الفرقة الضالة إلى أن الله تعالى قد أرسل جبرائيل عليه السلام إلي علي رضي الله عنه بالرسالة، إلا أنه أخطأ وقصد محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب، انظر:
- أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٣٨.
- (٢٥) العلوية ويذكرها النوبختي بـ "العلابية" قالوا: إن علياً هو الرب الخالق ظهر بالعلوية الهاشمية، وأظهر وليه وعبدته ورسوله بالمحمدية، انظر:
- النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق، ص ٦٠.
- (٢٦) والمخمسة: سمووا كذلك لأنهم زعموا أن الله عز وجل هو محمد، وأنه ظهر في خمسة صور مختلفة: في صورة محمد، وعلي، وفاطمة والحسن والحسين، انظر:
- النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق، ص ٥٧.
- (٢٧) البزيعية: وهم أتباع ابن الخطاب "زعيم الخطابية" زعموا بعد موته أن بزيع نبي رسول مثل ابن الخطاب (المرجع نفسه: ص ٥٣).
- (٢٨) القرامطة: زعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في اليوم الذي نصب فيه علياً ﷺ إماماً للناس في غدير خم، انظر:
- النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق، ص ١٠٦.
- (٢٩) ومن هذه الكتب:
- النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق.
- المفيد (توفي ٤١٣هـ - ١٠٢٢م) أوائل المقالات، سلسلة مؤلفات المفيد، مج (٤)، مرجع سابق.
- حلقات التشيع فكرياً واجتماعياً.
- (٩) فلهاوزن، يوليوس. الخوارج والشيعة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨م، ص ١٤٨.
- (١٠) تسهير، جولد. العقيدة والشريعة، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت، ص ١٧٤.
- (١١) بطروشوفسكي. الإسلام في إيران، ترجمة: السباعي محمد السباعي، القاهرة: دار الزهراء، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ٨٣.
- (١٢) جرونيانوم، جوستاف إ. فون. حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز توفيق، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص ٢٥٣.
- (١٣) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد. الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن قاعود، بيروت: دار المعرفة، ط ٤، ١٩٩٥م، ج ١، ص ١٦٩.
- (١٤) الأشعري. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥.
- (١٥) النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق ص ١٥.
- (١٦) يعقوبي. تاريخ يعقوبي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٤.
- (١٧) الطباطبائي، محمد حسين. الشيعة في الإسلام، مركز آل البيت العالمي للمعلومات، مكتبة العقائد والكلام، طبعة إلكترونية، ص ٣، تاريخ الزيارة www.al-shia.com. ٢٥/٥/٢٠٠٢م.
- (١٨) يقصد بحديث يوم الدار أو بدء الدعوة وذلك عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦) جمع النبي صلى الله عليه وسلم بني هاشم، وأنذرهم قائلاً: أيكم يوازرني ليكون أخي ووارثي ووصي وخليفتي فيكم بعدي فلم يجبه إلى ما دعا إلا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: هذا أخي ووزيري ووصي وخليفتي فيكم بعدي فاستمعوا له، وأطيعوا". انظر
- المفيد، محمد. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، بيروت: دار المفيد، سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، ط ٢، ١٩٩٣م، مج ١١، ج ١، ص ٥٠.
- (١٩) حديث الغدير، حيث وقف النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من حجة الوداع في مكان يسمى غدير خم وأخبر من معه من الحجيج بأنه كلف من الله تعالى بأن يبلغ رسالته ثم صعد منبراً وقال مخاطباً للناس "... إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه..." انظر:
- الكليني، محمد بن يعقوب. أصول الكافي، بيروت: دار الأضواء، ط ٣، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٢٩٤.

- الكليني، أصول الكافي، مرجع سابق، باب: دعائم الكفر والإيمان، ج ٢.
- الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، مرجع سابق.
- (٣٠) النوبختي، فرق الشيعة، مرجع سابق ص ٧٧-٨٠.
- (٣١) الكليني، أصول الكافي، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٣٣) المرجع السابق، ص ٥٧.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٣٥) المرجع السابق، ص ٥٨.
- (٣٦) الكركي، علي بن الحسين. رسائل الكركي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٩٩١م، ج ١، ص ١٤٢.
- (٣٧) هو زين الدين بن علي (٩١١-٩٦٥هـ) المعروف «بابن الحجة»، ثم بـ «الشهيد الثاني»، وقد اهتم إلى جانب الفقه وعلومه بمسائل تربية النشء.
- (٣٨) الكاتب، أحمد. التشيع السياسي والتشيع الديني، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٩م، ص ٣٨٥.
- (٣٩) زين الدين، الحسن. منتقى الجمال في الأحاديث الصحاح والحسان، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٢.
- (٤٠) الحكيم، منذر. مراحل تطور الاجتهاد في الفقه الامامي (٣)، فقه أهل البيت، طبعة إلكترونية، عدد ١، ص ٢، تاريخ الزيارة www.hawzah.net. ٢٠٠٥/٢/٢٥.
- (٤١) المرجع السابق، ص ٣.
- (٤٢) العلوم، محمد بحر. الدراسة وتاريخها في النجف، ضمن: الخليلي، جعفر. موسوعة العتبات المقدسة (٧)، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط ٢، ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٦٥.
- (٤٣) حب الله، حيدر. "المرجعية القرآنية والاتجاه الإخباري في الفكر الشيعي"، المنهاج، بيروت، س ٩، عدد ٣٣، ٢٠٠٤م، ص ٢٨٠.
- (٤٤) المرجع السابق، ص ٢٩٧. نقلاً عن:
- البحراني يوسف. الخدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، النجف: مطبعة النجف، ١٩٥٧م.
- (٤٥) عنايت، حميد. الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م، ص ٣٣٥.
- (٤٦) الكرمي، محمد تقي. مرجع سابق، ص ٢٦٩.
- (٤٧) أحمد الكاتب. التشيع السياسي، مرجع سابق، ص ٣٢٦.
- (٤٨) العاملي، محمد بن الحسن بن علي الحر. تفصيل وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة، طهران: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٩٨٩م، ج ١٨، ص ٤١.
- (٤٩) الطبرسي، أحمد بن علي. الاحتجاج، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٩م، ج ٢، ص ٢٦٣.
- (٥٠) فرحان، عدنان. حركة الاجتهاد عند الشيعة، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٤م، ص ٢٣٠.
- (٥١) العلوم، الدراسة وتاريخها في النجف، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢.
- (٥٢) المرجع السابق، ص ١٠٤.
- (٥٣) المرجع السابق، ص ٩٩.
- (٥٤) مركز التخطيط والمناهج الدراسية. الحوزة العلمية في فكر الإمام الخامني، بيروت: معهد الرسول الأكرم العالي للشريعة الإسلامية، طبعة الكترونية، ص ٧. www.arrasoul.org
- (٥٥) آل نجف، عبد الكريم. مدخل إلى دراسة الدور الحضاري للمرجعية الإسلامية، قم: مؤسسة التوحيد، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٥.
- (٥٦) عنايت، الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص ٨١. نقلاً عن:
- Hamid Algar, "shi'ism and ram the Eighteenth century", in T. Naff and R.Owen (eds), Studies in Eighteenth century Islamic history, London, 1977, pp. 288 ff.
- (٥٧) المرجع السابق، ص ٨١.
- (٥٨) المرجع السابق، ص ٨٢.